الجزء الأول

التعذيب والإغواء

obeikan.com

obeikan.com

ولادة كلمة

«تعد عملية الإلغاء الممنهج، وغالبًا القسري، لأكثر الأفكار رسوخًا في عقل الشخص، خاصة السياسية منها، حتى تحل محلها مجموعة أخرى من الأفكار؛ نوعًا من التحويل القسري الذي تمارسه دول شمولية معينة على المعارضين السياسيين».

تعريف (غسيل الدماغ) في قاموس أكسفورد للإنجليزية.

Definition of ‹brainwashing› in the Oxford English Dictionary

«القصد هو تغيير العقل بصورة جذرية بحيث يصبح صاحبه دمية حية (إنسانًا آليًا) من دون أن يلاحظ هذا العمل الشرير من الخارج. الهدف هو إنشاء آلية في اللحم والدم، بمعتقدات جديدة وآليات تفكير جديدة تولَج في جسمٍ أسير. ما ترمي إليه هو البحث عن عِرق مستعبد يمكن الوثوق به، على عكس عبيد الأزمنة الغابرة، بألَّا يثور أبدًا، وأن يكون خاضعًا دائمًا للأوامر، مثل حشرة تسيرها غرائزها».

إدوارد هنتر، غسيل الدماغ

Edward Hunter, Brainwashing

وُلد مصطلح (غسيل الدماغ) في أتون الحرب، وبخلاف ما يتوقع بعضهم من أنها الحرب العالمية الثانية -على الرغم من أنه أطلق بأثر رجعي على الوسائل النازية- فقد كانت في الواقع الحرب الكورية. انفجر هذا الصراع عام 1950م عندما غزت كوريا الشماليةُ، مدعومة بالنظام الصيني الشيوعي، كوريا الجنوبيةَ التي أرسلت لها الأمم المتحدة الناشئة حديثًا قوة متعددة الجنسيات، وسرعان ما لاحظت الولايات المتحدة الأمريكية، وهي المشاركُ الرئيسُ في هذا التحالف المشترك، شيئًا غريبًا يحدث لأفراد قواتها الذين يقعون أسرى في أيدي العدو؛ إذ خرج بعضهم من معسكرات أسرى الحرب، وقد تحولوا على ما يبدو إلى الشيوعية، مستعدين لنبذ موطنهم الذي وُلدوا فيه، والتغني بالطريقة الماوية في الحياة، ومع أن ظاهرة إجبار السجناء على تمجيد سجَّانيهم لم تكن أمرًا جديدًا، فإن بعض السجناء استمروا في عدم ولائهم الغريب -والحماسي- حتى بعد تحررهم من قبضة الشيوعيين. وبدافع عدم الارتياح من سلوكهم، والقلق من التأثيرات المحتملة في الروح المعنوية، بدأت الولايات المتحدة بدراسة ما أطلق عليه عميلُ

المخابرات المركزية الأمريكية إدوارد هنتر Edward Hunter على الملأ عام 1950م مصطلح (غسيل الدماغ). عبر هنتر نفسه عن ردود فعله السلبية تعبيرًا واضحًا جدًّا عندما وصف ضحية من ضحايا هذه الظاهرة الجديدة الغريبة.

> **لم يكن أولئك الذين أجروا معه المقابلات متحيرين ومذعورين مما قاله فحسب، بل أيضًا بالطريقة التي تكلم بها، لقد بدا كلامه وكأنه كلام مسجل على قرص أسطواني يجب سماعه من بدايته إلى نهايته، من دون تعديل أو توقُّف، حتى بدا وكأنه تحت إكراه عجيب غير طبيعي بأن يسترسل في سلسلة من الأفكار من بدايتها إلى نهايتها، حتى لو كانت تعدُّ سخيفة؛ فعلى سبيل المثال، تحدث أنه لم يواجه أي عنف حتى بعد أن أشار أحدهم إلى أنه شوهد مقيدًا بالأغلال، إنه لم يعد قادرًا على استخدام إرادته الحرة أو تكييف نفسه مع موقف لم يعد فيه مأمورًا من أحد؛ كان عليه الاستمرار وكأن الغرائز وحدها تتلاعب به. كان ذلك انضباطًا حزبيًّا امتد إلى عقله؛ وفيه عنصر نشوة، لقد جعلني ذلك أشعر شعورًا مقززًا.**
>
> هنتر، **غسيل الدماغ**، الصفحات 14–15.
>
> Hunter, Brainwashing, 14-15

عُرف منذ قرون من الزمن أن الحرب –شأنها شأن المواقف الشديدة الأخرى– تسبب حدوث أشياء غريبة لدى الإنسان، وقد أشار وليم شكسبير إلى جنون الحرب، وأشار الإنجيل إلى ذلك أيضًا. وفي الآونة الأخيرة، وصف وليام سارجانت William Sargant في كتابه **معركة من أجل العقل** الذي نشره عام 1957م عمله عندما كان طبيبًا عامًا وطبيبًا نفسيًّا يعالج المحاربين القدامى في الحرب العالمية الثانية؛ كان كثير من هؤلاء الرجال يعاني ما كان يسمى صدمة القذيفة أو الشدة الناتجة من القتال، ويعرف الآن باضطراب الشدة بعد الرضوض post–traumatic stress disorder. لاحظ سارجانت تغيرات تفوق العادة في الشخصية، وتقلبات شديدة في المزاج والسلوك، وزيادة مثيرة للقلق في القابلية للإيحاء، وفقدان التحكم في الذات ظهرت لدى الجنود والمدنيين الذين تأثروا بتجارب رضيَّة، وبدا واضحًا أن ضغوط الحرب يمكن أن يكون لها تأثير كارثي في أدمغة البشر.

لكن غسيل الدماغ أكثر من مجرد عُصاب أو نفاس؛ يمكن تحريض مثل هذه الحالات لتكون جزءًا من عملية غسيل الدماغ، لكنها مجرد خطوة على طريق الهدف المتمثل بإجبار الضحية على الخضوع للحملات الدعائية لغاسلي الدماغ. يؤكد إدوارد هنتر في كتابيه **غسيل الدماغ في الصين الحمراء** و**غسيل الدماغ**، وكل منهما في حد ذاته قطعة فنية من الحملات الدعائية،

الخبث المتعمد والمنظم للعدو الشيوعي. يوصف غسيل الدماغ بعبارات سلبية بالكامل على أنه نوع من الاغتصاب العقلي: إنه يُفرض على الضحية من قبل عدو يهدف إلى تدمير إيمان الضحية بمعتقداته السابقة، ومسح لوح الذاكرة مسحًا كاملًا حتى يمكن تبني معتقدات جديدة.

الأصول والكلمات المشتركة

الكلمة نفسها -وفقًا لهنت- هي ترجمة للمفهوم الصيني هكسي تاي ناوxi naw كسي ناو أو هنشي ناو hsi naw (الصور الرمزية الصينية موضحة في الشكل 1-1)، واستخدم هذا المصطلح باللغة العامية للتعبير عن مصطلح شن-شان تا ششيا هاي تاو شي szu- hsiang kai-tsao (التي تعني (إصلاح التفكير)؛ انظر الشكل 2-1)، وهو المصطلح الرسمي الذي يطلقه الشيوعيون الصينيون على عملياتهم، لكن مفهوم هنشي ناو hsi-nao الذي يعني (غسيل القلب) أو (تنظيف العقل) باستخدام التأمل، أقدم بكثير من الشيوعية.

洗脑

الشكل 1-1 الصور الرمزية الصينية التي تمثل مفهوم هكسي تاي ناو xi-nao، المترجمة (غسيل الدماغ).

思想改造

الشكل 2-1 الصور الرمزية الصينية التي تمثل مفهوم شن-شان تا ششيا هاي تاو شيszu-hsiang-kai-tsao، المترجم (إصلاح التفكير).

يدعي هنتر أنها تعود تاريخيًّا إلى زمن مينج كاو Meng K"o (يعرف في الغرب باسم منسيوس)، وهو مفكر كونفوشيوسي من القرن الرابع قبل الميلاد، وإذا كان الأمر كذلك فهو مثال مبكر على تراث قديم في تطبيق أشكال من غسيل عقول وأرواحٍ وأنفسٍ بشرية وتنظيفها.

وفي الإنجليزية، تقدم لوسي هتشنسون Lucy Hutchinson الشاعرة من القرن السابع عشر مثالًا جيدًا على هذا التقليد؛ إذ كتبت بعد منسيوس بزمن طويل، ولكن قبل إدوارد هنتر بثلاثة قرون تقريبًا؛ كتبت هذه المرأة المخلصة للمسيحية، بعد أن كانت قد ترجمت أعمال الفيلسوف كريتيوس Lucretius ووجدت أنها أعمال (كافرة بالله)، بأنها «وجدت أن من الضروري الوصولَ إلى ينبوع الحقيقة، لغسل جميع الانطباعات البشعة والشاذة، وتحصين العقل بترياق قوي ضد كامل سم فطنة وحكمة الإنسان التي تعرضت لها»[1].

لم تذكر هتشنسون Hutchinson كلمة (غسيل الدماغ) بل كلمة قريبة جدًّا منها، ولكنها استخدمت مفهومها بمعنى إيجابي؛ ينبوع الحقيقة (المسيحية) يغسل دماغها وينظفه من الفساد الناجم عن ترجمة عمل كريتيوس الوثني. نظر كثير من أتباع الزعيم ماو إلى طرائقهم في (إعادة التربية) أو (إصلاح التفكير) نظرة إيجابية مماثلة، وكان هدفهم هو التخلص من سموم الأفكار الاستعمارية والرجعية، ووَفق ما يقول الطبيب النفسي روبرت جاي ليفتون Robert Jay Lifton في عمله المتميز حول الموضوع: «من المهم جدًّا أن ندرك أن ما نراه مجموعةً من مناورات قسرية، يراه الصينيون الشيوعيون تقدميًّا ومنسَّقًا وعملية علاجية علمية»[2]، جاء هذا التحقير الذي نربطه الآن بإعادة التربية، وإصلاح التفكير، وغسيل الدماغ من أعداء ماو في ذلك الزمن؛ أي الولايات المتحدة الأمريكية، وشوَّه المعنى الأصلي.

عكست ولادة مصطلح (غسيل الدماغ) الحاجة إلى تسمية ما كان يرى أنها أخطار جديدة مرعبة، وأصبحت هذه الحاجة ملحة بصورة متزايدة مع المحاكمات الصورية السوفييتية في ثلاثينيات القرن العشرين، التي تخلى فيها القادة السابقون للحزب الشيوعي الذين فقدوا مصداقيتهم، علانية عن كامل مسيرتهم المهنية وسياساتهم ومعتقداتهم فيما بدا وكأنه إخلاص لا شك فيه، وعندما بدأ الأمريكيون في الصين وكوريا إظهار سلوك مشابه أصبحت الحاجة ملحة إلى تفسير كيفية حصول ذلك؛ كانت تسمية إدوارد هنتر قادرة على تغطية الفجوة المفاهيمية إن لم يكن ردمها: هدَّأ واقع وجود كلمة تصف أيَّ أمور غامضة تجري في مخيمات السجون الصينية مخاوف الرأي العام الأمريكي من المجهول، وقد قيل إن مفهوم غسيل الدماغ أتاح للأمريكيين تجنب مواجهة فكرة الخطيئة الأصلية الكامنة في العقيدة المسيحية (وعواقب قنبلتي هيروشيما وناجازاكي)؛ لأن هؤلاء أنفسهم يمارسون أعمالًا شريرة، وقد لاحظ شيفلين وأبتون Scheflin and Opton في كتابهما المتلاعبون بالعقل، «يبدو غسيل الدماغ وكأنه تفسير»، يبدو أن نقل المسؤولية

إلـى مـكان آخـر وإلغاء الحاجـة إلى النظر من كثـب في أنفسـنا؛ يجعل هذه القدرة علـى الطمأنة «فكرة جذابة جاذبية غريبة».

فـي البداية، كان مفهوم غسـيل الدماغ يعني أنه آلية تسـيطر عليهـا الدولة، وتديرها أنظمة شـمولية ضد المنشـقين، سواء كانوا مواطنين أو أجانب، وكان مثل هذا المصطلح مفيدًا إلى حد أنه لا يجدر أن يبقى محصورًا في نطاقه السياسي الأصلي، ثم سرعان ما طبق تعبيرًا عن الإساءة إلى مجموعات أصغر، بل وإلى الأفراد.

تطرح الطبيعة السياسـية المفرطة لمصطلح (غسـيل الدماغ) أحد الأسـئلة المحورية حول غسيل الدماغ؛ أهو موجود في الحقيقة، أم إنه خيال شمولي جامح، حلم به صحفي أمريكي ليصف تهديـدًا تشـكله ثقافـة غريبـة؟ لا شـك أن هذا المصطلح يسـتعمل اليـوم في تحوير عفـوي ليعني أيَّ محاولـة للتأثيـر فـي عقول الآخرين. اُتهم العاملـون في الإعلانات ووسـائل الإعلام، والتعليم، والدين، والصحة العقلية -كما سـنرى لاحقًا- بغسـيل الدماغ، وهو ما يوسـع المصطلح ويقلل من قيمته مقارنة باسـتعمال هنتر Hunter's له، وقد أسِـف روبرت ليفتون «للاسـتعمال غير المسـؤول للمصطلـح مـن قبـل المعارضين لإضافة الفلور إلـى الماء، ومعارضي قوانيـن الصحة العقلية، أو أي مجموعـات معارضـة لأي أمر كان في خلافهم مع خصومهم الحقيقيين أو الوهميين»[3]، مع أنه نشـر كتابـه أول مـرة عام 1961م، بعد أحد عشـر عامًا فقط من دخول مصطلح (غسـيل الدماغ) إلى اللغة، وفي أيامنا هذه لم يعد غسـيل الدماغ أكثر من مجرد مصطلح عرضي للإسـاءة، كثيرًا مايكون تهكميًّا[4].

لكن في هوس مناهضة الشـيوعية الذي انتاب أمريكا في خمسـينيات القرن العشـرين، لم يكـن غسـيل الدمـاغ مفهومًا عرضيًّا علـى الإطلاق، بـل كان -خلافًا لذلك- مرعبًـا؛ إذ كان يعني الخـوف مـن فقدان السـيطرة، والإرادة الحرة، وحتى الهويـة[5]. وبصفته مكروهًـا لأنه مظهر آخر فتاك للتهديد الأحمر، استخدم في تأجيج نيران الغضب الشعبي؛ وهو يشبه في ذلك مفهوم الشر -الذي ما زال شائعًا في الاستعمال بصفته تفسيرًا سهلًا للأمور- والمفاهيم القديمة عن السحر والمس الشيطاني التي لازمت أمريكا منذ محاكمات ساحرة مدينة سالم، وأبكر من ذلك[6]، وعلى الرغم من أن فكرة المس الشيطاني قد تراجعت بعد أن أصبح المجتمع أكثر علمانية، فإنه يمكن القول إن غسيل الدماغ هو في الواقع النظير العلماني له، إذا ما عُدَّ المسُّ الشيطاني غسيلَ دماغ بوساطة عامل خارق للطبيعة وليس بتأثير الإنسان.

مـن المؤكـد، أن مفهوم غسـيل الدماغ قد تجدد ظهوره بين النـاس على مراحل منذ ولادته، ويكون ذلك عادة استجابة لأحداث بارزة خاصة تبدو وكأنها لا تقبل أي تفسير آخر: مفهوم الملاذ الأخير، قناع يغطي إحدى الفجوات العديدة في فهمنا لأنفسنا.

وفـق مـا ذكرنـا آنفًا، فـإن مفهوم هنتـر Hunter لـم يظهر من العـدم؛ فقد حاول البشـر أن يغير بعضهم عقول بعض منذ اكتشـافهم أول مرة أن لديهم عقولًا، وكان ذلك يحدث غالبًا بنيات حسـنة: اشـتق من المصطلـح اليونانـي (يووانجيليون) -الذي يعني الرسـالة الجيـدة- مصطلح (التبشير الملائكي، إيفانجيلزم) في حين اشتق من مصطلح بورباغو propago في اللغة اللاتينية -الذي يعني التوسع أو الزرع- اسم مجمع يدعى (جماعة نشر الإيمان) باللاتينية congregatio (de propaganda fide وهو مجمع للكرادلة أنشـأته الكنيسـة الكاثوليكية الرومانية للإشـراف على البعثـات الأجنبيـة. واشـتقت كلمة التربيـة بالإنجليزيـة إيديوكاشـن (Education) مـن اللاتينية إيديوكيري educere التي تعني بدقة: يستخلص؛ أما إعادة التربية (re-education) فهي ببساطة محاولـة ثانية للاسـتخلاص. وبصورة مشـابهة، يحمل مصطلح (إصـلاح التفكير) معه إيحاءات إيجابيـة علـى تحسـين الإدراك، أمـا كلمـة التلقيـن (Indoctrination) بالإنجليزية التي اكتسـبت دلالات سـلبية متزايـدة منـذ إدخالهـا إلى اللغة الإنجليزية في القرن السـابع عشـر، فقد اشـتقت مـن الكلمـة اللاتينيـة دوكترينـا doctrina التـي تعني (مقدارًا مـن المعرفة أو التعلـم)، وأما كلمة المنعكـس الشَّـرطي (conditioning) التـي اشـتهرت من خلال أعمال إيفان بافلـوف Ivan Pavlov في تدريبه الكلاب على إفراز اللعاب عند سماع صوت الجرس[7]، فقد اشتقت من الكلمة اللاتينية كونديكيـري condicere التـي تعني يعين أو يسـتقر، أو يرتـب. إذًا، ما الذي يمكن أن يكون أبعد عن التلف من نشر الأخبار الطيبة، وإبراز أفضل ما لدى الناس، والتعلم، وإجراء الترتيبات؟ لكن مع ذلـك فـإن مصطلح الإقنـاع القسـري (coercive persuation)، وهو المـرادف القريب من إصلاح التفكير الذي اسـتخدمه الطبيب النفسـي إدجار شـين Edgar Schein في كتابه الذي يحمل عنوانه الاسم نفسه، يشير إلى الجانب المظلم من طرائق التأثير[8].

إذا خالفك شخص ما، فيمكنك بالتأكيد أن تقتله، لكن هذا محفوف بالأخطار، ومن ثم فقد طورت المجموعات البشـرية الأولى أسـاليب بديلة، وحدد ليفتون Lifton أربعة من هذه الأساليب: الإكـراه، والموعظـة، والمعالجة، والإدراك؛ فيقول الإكراه: «عليـك أن تتغير بالطريقة التي نقولها لـك، وإلا...»؛ وقـد يتضمـن ذلك الموت عقوبةً قصوى، وتسـتدعي الموعظة سـلطة أخلاقية أعلى

تقول: «يتعين عليك أن تتغير، بالطريقة التي نقترحها، لتصبح شخصًا أفضل»، وتقول المعالجة: «يمكنك أن تتغير، تحت إشرافنا، لتتمتع بصحة جيدة وتتخلص من المعاناة»، وأخيرًا، يقول الإدراك: «يمكنك أن تتغير، وتستطيع أن تعبر عن كامل إمكاناتك، إذا كنت مستعدًّا لتقبل أفكار وتوجهات جديدة».

مثل كثير من أساليب الإقناع، يستخدم إصلاح التفكير بالطريقة التي مارسها الشيوعيون الصينيون عناصر من الفئات الأربع كلها، لكن ما أسماه ليفتون (الشمولية الفكرية) -وهي نزعة نحو التطرف، وأنماط من الفكر على مبدأ الكل أو لا شيء تميز الأنظمة الشمولية- (تستند في معظمها إلى الفئتين الأولَيين)؛ الإكراه والموعظة.

في الوقت الذي بدأت فيه قبائل تغزو قبائل أخرى، حظيت فنون الإقناع المختلفة بالاحترام، فقد ورد في سفر الخروج من العهد القديم (الفصل الرابع، الآيات 10-16) أن موسى عليه السلام توسل إلى الرب حين أمره بما يريد منه أن يعفيه، على أساس «أني بطيء في الكلام، ولساني ثقيل»، وفي سورة طه من القرآن الكريم: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه: 27-28]، وفي العهد القديم أجابه الرب: «أليس هارون اللاوي أخاك؟ أعلم أنه يمكنه التحدث بصورة جيدة... سيكون المتحدث باسمك إلى الناس»*، وفي الوصف الإنجيلي لوقت أبكر عندما يتحدث عن إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء، يجادل النبيُّ إبراهيم عليه السلام اللّه حول مصير مدينة سدوم بلدة لوط عليه السلام، ووعده اللّه تعالى أنه إذا وُجد فيها حتى عشرة رجال صالحين فلن تدمَّر، وقد مر هذا الموقف الجدلي من دون عقاب، لكن لسوء حظ سدوم أنه لم يكن فيها إلا رجل صالح واحد هو لوط عليه السلام ابن أخت النبي إبراهيم**، ومع ذلك، وحسب العهد القديم؛ «ما حصل هو، أنه عندما دمَّر اللّه مدن السهل، تذكر اللّه إبراهيم وأرسل لوطًا» (سفر التكوين 19: 29)، وقد يبدو سطحيًّا أن إبراهيم عليه السلام يحاول إقناع اللّه بعدم تدمير قوم لوط في مجادلته عنهم***. (ومن الملاحظ أنه كما هي الحال في إصلاح التفكير يكون العثور على أمثلة عن الإكراه والموعظة في العهد القديم أسهل من العثور على أمثلة المعالجة والإدراك).

---

* في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: 34-35]

** في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: 32]

*** في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [هود: 74-76]

مـع تنامـي الإمبراطوريـات واتسـاع أعبائهـا الإداريـة تعاظمت الحاجـة إلى السـيطرة على مواطنيها، وكان عنف الجيوش هو التهديد الأقصى؛ لكن الجيوش لا يمكن أن تكون حاضرة في كل مكان، وقد وجدت الإمبراطورية الرومانية، عندما واجهت اليهود، أن تقديم كثير من الشهداء قد تكون له نتائج عكسية. تبنَّت بعض الأنظمة، مثل الإمبراطورية الفارسية (330–550 قبل الميلاد)، نهجًا عمليًّا تحرريًّا: ادفع الضرائب وحافظ على السلام تكن آلهتك وعاداتك أمورًا خاصة بك، في حين كانت غيرها من الإمبراطوريات أكثر دكتاتورية. طوَّرت كل ثقافة أشـكالًا خاصة بها للتحكم المتزايد التعقيد: كشـبكات من الجواسيس، والتسلسـل الإداري الهرمي لضمان تدفق الإيرادات، وإكراه أو رشـوة القادة المحليين، والمؤسسـات القانونية والاجتماعية، واعتمد كثير منها اعتمادًا كبيرًا على أساليب الإكراه مثل التعذيب الذي يمكن أن يكون جسديًّا وحشيًّا بوضوح أو نفسيًّا أكثر خفاء، ومن هذا التراث الغني من الإكراه انبثق عديد من الطرائق المرتبطة بغسـيل الدماغ، وفي الواقع، فإن الخط الفاصل بين غسـيل الدماغ والتعذيب النفسـي قد يكون دقيقًا جدًّا بحيث إنه لا يستحق الرسم، بل بحيث لا يمكن رسمه. (سوف أبحث هذا أكثر في الفصل الخامس).

مظاهر غسيل الدماغ

ثمة نقاط عدة تتعلق بمصطلح (غسيل الدماغ) لا بد من بحثها؛ فأولًا؛ إذا أردنا التفكير في غسـيل الدماغ فلا يمكننا تجنب مناقشـة السياسة؛ فكلاهما متشابكان معًا. يختلف مفهوم غسيل الدمـاغ –مثلـه مثل مفهوم الإله أو الحب أو الحرية– وتتعدد معانيه بحسـب خلفيات من يتداولونه وطموحاتهـم، وهـذا بذاتِـه لا يُفقد المصطلح مصداقيته. إذا اسـتطعنا تفسـير الآليات المختلفة التي يغير بوساطتها الناس بعضهم عقول بعض، فهل نحن بحاجة إلى كلمة هنتر Hunter؟ أعتقد ذلـك؛ قد يوجـد ملحدون قادرون على تجنب الكلمة (الرب)، وحتميون مقتنعون أن الإرادة الحرة هـي محض خيال ولا يقولـون أبدًا «أنـا أختار»، وعلماء فـي وظائف الأعضاء يسـتبدلون الإفصاح عـن العواطـف بقولهـم: «حبيبتي، لدي تدفق هرمونـي»، لكن معظمنا لايزال يسـتخدم لغة الحب، والاختيـار، والديـن (مهما خففنا من حدتهـا)، وبطريقة مماثلة، هناك اسـتعمال أكثر لمصطلح غسيل الدماغ من العمليات التي قد تشرحه أو لا تشرحه.

ثانيًا، يتميز غسيل الدماغ بمظاهر متنوعة يمكن فصل بعضها عن بعض؛ ففضلًا عن وظيفته السياسـية للتعبير عن الإسـاءة، يمكن اسـتخدامه وصفًا وظيفيًّا لآلية أو آليات علمية لتحقيق مثل

هـذه السـيطرة. يناقش أولئك المتشـككون الذيـن يقولون: «إن الأمـر كله محض هـراء» مؤكدين رفضهـم فكـرة أن مثـل هذه الآليـات العلمية موجـودة؛ أي إن الأدمغة لم تخضع قـط بصورة تامة للسـيطرة بالطريقة التي اقترحها كتاب المرشـح المنشـوري The Manchurian Candidate الذي يرتكب فيه بطل الرواية المغسول دماغه جريمة القتل عندما يؤمر بذلك، حتى عندما كان الهدف هو الفتاة التي يريد أن يتزوجها[9]. وسوف أعود إلى المتشككين فيما بعد، لكن أكتفي الآن بالإشارة إلـى أن هـذه الاعتراضات تهمل جميع مظاهر غسـيل الدماغ عدا أكثـر مظاهره الميكانيكية، لكن غسيل الدماغ ليس مجرد مجموعة من التقنيات؛ بل هو أيضًا حلم، ورؤية للسيطرة القصوى ليس على السـلوك فحسـب بل أيضًا على التفكير، لامتلاك المهارات السـرية التي يمتلكها غجر ماثيو آرنولد Matthew Arnold:

«... فنون ليحكموا كما يرغبون

عمليات أدمغة الرجال،

ويستطيعون ربطها بأي أفكار يشاؤون».

آرنولد، الباحث–الغجري، السطور 7: 45.

Arnold, *The Scholar-Gipsy*, lines 45–7

إن غسيل الدماغ أكثر طموحًا وأكثر قسرًا من الإقناع البسيط، وبخلاف الكلمات المشتركة القديمـة مثل التلقين، أصبح أكثـر ارتباطًا بتقنية آليـة حديثة[10]، إنه آلية لتعديل الأشـخاص غير المتجاوبيـن وهي إن نجحت يمكنها إعادة تشـكيل هوياتهـم الذاتية. يعد هذا الترابط بين التقنية الهائلة وطمس البشر، نفسيًّا أو جسديًّا، أحد أكثر مواريث القرن العشرين شرًّا (ألقت معسكرات الاعتقـال فـي أوشـفيتز، والقنبلـة النوويـة التـي ألقيت علـى هيروشـيما Hiroshima، ظـلالًا ثقيلة على سـنوات ما بعد الحرب). يمكن أن تكون أحلام السـيطرة كالتي سـببت هذه الأفعال الشـنيعة محددات قوية لأنماط الأفعال؛ لذلك يجب ألَّا نستخف بها.

أخيـرًا، تأخـذ فكـرة غسـيل الدماغ هيئـة يظهر فيها مفهـومُ الملاذ الأخير، سـتارة تسـدل لإخفاء هاوية جهلنا. نسـتحضره عندما لا يكون لدينا تفسـير آخر، أو عندما لا يكون لدينا الحافز للبحث عن تفسير آخر[11]، عندما نُواجه بشيء غير عادي، مثل ما يبدو أنه انتحار جماعي طوعي، أو تعاطف بعض ضحايا الاختطاف مع خاطفيهم، فإن أول ما يخطر لنا عند وصف تصرف أموات جونزتـاون Jonestown الذيـن أقدمـوا على الانتحار الجماعي، أو باتي هيرسـت Patty Hearst التي تعاطفت مع خاطفيها، على أنه غسـيل دماغ؛ يتعين علينا تسـميته بشـيء ما، ولا نعرف شـيئًا آخر

نسميه به. سوف أعود لجونزتاون في الفصل القادم، لكن الآن تقدم لنا قصة باتي هيرست أول حالة من خمس من دراسات الحالات التي تظهر بعض الطرائق التي استخدم فيها مفهوم غسيل الدماغ في نصف القرن الذي تلا ولادته[12].

حالة دراسية: باتي هيرست

في 4 شباط من عام 1974م، اُختطفت باتريشيا هيرست، وريثة وحفيدة وليام راندولف هيرست William Randolph Hearst أحد عمالقة وسائل الإعلام الأمريكية قوي النفوذ، من قبل منظمة تطلق على نفسها اسم جيش التحرير التكافلي(Symbionese Liberation Army (SLA. وقد احتجزت في خزانة مقيدةً ومعصوبة العينين أسابيع عدة، تعرضت خلالها للاعتداء الجسدي، في أثناء ذلك طالب جيش التحرير مؤسسة هيرست بفدية، لم تقتصر على طلبات المال، بل تضمنت الحصول على منحة غذائية بقيمة ملايين الدولارات، وإطلاق سراح اثنين من أعضاء جيش التحرير مسجونين بتهمة القتل.

في 14 نيسان من العام نفسه تسببت باتي هيرست Hearst بضجة إعلامية بمشاركتها جيش التحرير في عملية سرقة مصرف في سان فرانسيسكو، أعلنت على أثرها على الملأ شجبها لعائلتها وأبدت التزامها بجيش التحرير. بعد اعتقالها في نهاية المطاف في أيلول 1975م، بعد عملية سطو أخرى على الأقل، ومعركة بالأسلحة النارية مع الشرطة قتل فيها ستة من أعضاء جيش التحرير، وصَفت عملها بأنه «حرب عصابات في المدن»، وأعلنت معتقداتها الثورية؛ كانت القضية المركزية خلال محاكمتها تدور حول كونها تعمل بملء إرادتها في أثناء عملية السطو. وضع جدالا الدفاع المطوَّلان –حول أنها كانت مكرهة، وأنها كانت مغسولة الدماغ– غسيل الدماغ في ساحة المسرح. جادل الادعاء بقوة أنها إذا كانت مكرهة على التصرف في عملية سرقة المصرف، فإنها لم تكن مغسولة الدماغ؛ ولو كانت مغسولة الدماغ لما كان إكراهها ضروريًّا؛ ركَّز الادعاء أيضًا على حقائق ملحوظة: أن باتي عاشت أشهرًا منفصلة عن أي من أعضاء جيش التحرير؛ وأنه قد أتيحت لها فرص عدة للهرب، وكان معها بندقية؛ وأظهر شريط فيديو عملية سرقة مصرف سان فرانسيسكو أنها تعرف تمامًا ما تقوم به؛ وأنها استخدمت التعديل الخامس للدستور (وهو الحق في عدم الإجابة عن سؤال إذا كانت الإجابة تدينها أو كانت تشكل خطرًا

عليهـا) اثنيـن وأربعيـن مـرة، وفي النهاية وقفـت هيئة المحلفين مـع الادعاء العام وأرسـلت باتي هيرست Hearst إلى السجن[13].

هل كانت باتي هيرسـت Hearst مغسـولة الدماغ؟ تعرض حالتها أربعة مظاهر مهمة لمفهوم غسـيل الدمـاغ: طبيعته الهادفة، و(الفارق المعرفي) بين المعتقـدات التي تؤمن بها الضحية قبل غسـيل الدماغ المزعوم وبعده، والمقياس الزمني الذي يحدث فيه التغير في المعتقد، واستخدام غسيل الدماغ، كما ذكرنا سابقًا، بفكرة (مفهوم الملاذ الأخير).

الهدف

غسـيل الدمـاغ عمـل متعمد؛ أي إن السـلوك المقصود من قِبَل من يحاول غسـيل الدماغ هو جـزء جوهـري مـن تلك العمليـة. قد لا يكون الهـدف خبيثًا -فقد يعتقد غاسـل الدمـاغ بصدق أن الضحية سـوف تسـتفيد من (إعادة التعليم)- ولكن الحكم على عمل بأنه خبيث يعتمد بقوة على المنظور؛ لذلك فإن العمل العدواني ليس نقطة جوهرية، وما يهم هو أن العمل مقصود وينفذ من أجل تغيير الضحية.

لكـن المحـاولات الهادفـة لتغيير دماغ شـخص ما لا تشـكل بحد ذاتها غسـيلًا للدمـاغ، وإلَّا لاعتقلت السلطات الأمريكية في خمسينيات القرن العشرين كل محام في البلاد (في نظام العدل الخصومـي كمـا هي الحال في أمريـكا أو بريطانيا، حيث إن لتغيير عقول المحلفين والقضاة دورًا رئيسًـا)، إذن: مـاذا نحتاج إضافـة إلى ذلك؟ يمكننا أن نميز ثلاثة مكونـات أخرى مهمة لمفهوم غسيل الدماغ.

الفارق المعرفي

ويعني غرابة المعتقدات الجديدة مقارنة بالقديمة، فلو أن مشـجع كرة قدم متعصبًا يدعي أن دماغـه قـد غُسـل للاعتقـاد بـأن قائـد فريقه هو فعـلًا أفضل لاعب كـرة قدم فـي العالم، فمن المحتمـل أنـه لن يحصـل على كثير من التعاطـف أو الاهتمام، لكن قصة وريثة أمريكية شـابة قد اُختطِفـت ثم ألقي القبض عليها متلبسـة بسـطو مسـلح قصـة مختلفة؛ بدا التناقض بين التنشـئة

المترفة لباتي هيرست Patty Hearst والمثل العليا لجيش التحرير التكافلي هائلًا بحيث أصبح غسيل الدماغ تفسيرًا رائجًا في زمن محاكمتها.

تجدر ملاحظة أن المعتقدات الجديدة التي تكتسبها ضحية غسيل الدماغ قد تكون (معقولة) للتمسك بها في البيئة الحالية أو لا تكون؛ فمثلًا بالنسبة إلى سجناء معسكرات إصلاح التفكير الصينية، كان تبني نظام المعتقد السائد (الشيوعي) هو المخرج الوحيد من الحرمان والتعذيب الشديدين، ومع ذلك واصل بعضهم التمسك علنًا بمعتقدات (العدو) هذه حتى بعد عودتهم إلى الولايات المتحدة.

ونظرًا إلى شدة المشاعر المعادية لأي شيء يتعلق بالشيوعية في ذلك الوقت، فإن ذلك لم يكن تصرفًا حكيمًا؛ قد لا تكون المعتقدات المكتسبة بوساطة غسيل الدماغ -شأنها شأن المعتقدات المكتسبة بالأساليب الأكثر روتينية- مفيدة في الواقع لحاملها، وقد تكون في بعض الحالات ضارة كثيرًا.

المقياس الزمني

تتغير المعتقدات والشخصيات باستمرار مع نمو الأشخاص؛ فاعتقادي بوجود بابا نويل يتعارض تعارضًا بيّنًا مع اعتقادي به عندما كنت صغيرًا، فهل كان دماغي مغسولًا من قبل عالم الكبار؟ لا، ولكنني ببساطة كبرت، وتقبلت تدريجيًّا مع تقدمي في العمر أنه لا وجود لشخص مثل بابا نويل، لكن لننظر في اعتقاد صديقي كيث القوي جدًّا بالمسيحية؛ فإذا اختفى كيث شهرًا ثم رأيته وقد أصبح ملحدًا محتدًّا، فقد أشك بأن شخصًا ما قد مارس عليه تأثيرًا مفرطًا، في حين أنني لو لم أرَ كيث عشر سنوات، فالأكثر احتمالًا هو أنني سأعزو هذا التغير لأسباب طبيعية، بمعنى آخر؛ كلما كان زمن التحول أقصر- بين المعتقدات القديمة والجديدة- زاد الاحتمال بأن شكلًا من أشكال غسيل الدماغ قد حصل.

الملاذ الأخير

أخيرًا، كما عرفت سابقًا، يكون غسيل الدماغ غالبًا (مفهوم الملاذ الأخير)، وعادة يكون التذرع به فقط عندما لا يكون هناك تفسير آخر واضح. (عندما لا يستخدم إهانةً عرضية).

obeikan.com

وفي حالة باتي هيرست Patty Hearst –على سبيل المثال– كانت الحجة بأنها تعرضت لغسيل الدماغ طريقةً لردم الفجوة بين نشأتها بوصفها سليلة سلالة رأسمالية مثالية، ومشاركتها التطوعية في مجموعة يسارية عنيفة ومتطرفة.

مظهران آخران من مظاهر غسيل الدماغ يتعين أخذهما بالحسبان؛ الأول هو قوة الاعتقادات التي يتضمنها وارتباطها بالعاطفة، خلال غسيل الدماغ نفسه وبعده، وفي رد فعل الضحية على الهجمات على معتقداته الجديدة؛ فمثلًا يلاحظ الأشخاص العاملون مع ضحايا الطوائف الدينية أن المعتقدات الجديدة ترتبط بحالات عاطفية قوية جدًّا. تحدي مثل هذا الاعتقاد يعد منطقيًّا أمرًا صعبًا إن لم يكن مستحيلًا؛ فلا يقتصر الأمر على أن الضحية يفهم أن هذا التحدي هو عمل عدائي، لكنه يرفض الانخراط في أي مناقشة عقلانية؛ تعد المعتقدات الجديدة (مقدسة) وبعيدة عن متناول العقل. هذا الأمر نفعله جميعًا إلى حد ما، لكن المقاومة العدائية للضحية المزعومة لغسيل الدماغ يمكن أن تكون مبالغًا فيها، ويمكن أن يكون محتوى المعتقدات الجديدة صادمًا للآخرين كونه عجيبًا، إلا أنه مرة أخرى مسألة وجهة نظر.

يفترض غالبًا أن غسيل الدماغ يتضمن تغيرًا من مجموعة قوية من المعتقدات إلى أخرى، لكن قد لا يكون الأمر بالضرورة هكذا؛ فقد صُدم الأمريكيون بمواطنيهم الذين غسلت أدمغتهم مفترضين أن الاعتقاد المبدئي في طريقة الحياة الأمريكية كان قويًّا مثل الاعتقاد في الشيوعية التي تبناها هؤلاء الرجال فيما بعد، قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون. كان الأمريكيون أبطال الحرب العالمية الثانية؛ فبدأت تسيطر طريقتهم في الحياة. لا يحتاج مجتمع حر نسبيًّا خرج للتو منتصرًا في الحرب ويحمل معتقدات تكون فيها الحرية والفردية مُثلًا عليا مهمة، إلى الاقتناع بالمعتقدات التي يحملها مجتمع سلطوي يرى نفسه مهددًا من العالم الخارجي، كما هم الشيوعيون الصينيون، ويجب ملاحظة أنه حتى بالنسبة إلى الأقلية التي تحولت إلى الشيوعية وعادت إلى الولايات المتحدة، فقد اتجهت آراؤهم التي تمسكوا بها بقوة إلى التلاشي مع مرور الزمن، وغالبًا ما رافق ذلك ارتباك متزايد ومرض عقلي في بعض الحالات.

المظهر الثاني هو استخدام القوة والرعب: الإكراه في الإقناع القسري. في غسيل الدماغ من النوع الذي زُعم تنفيذه على السجناء الأمريكيين في كوريا، كانت القوة جوهرية جدًّا؛ إذ كان الحراس يعملون على أن ينهار أسراهم؛ فطُبِّق كلٌّ من التعذيب العقلي والجسدي لتحقيق ذلك،

لكن على الرغم من استخدام القوة غالبًا، فإنها ليست أساسية؛ فكثير من الطوائف الدينية تتودد إلى ضحاياها بالحب بدلًا من الوحشية، ثم إن من الصعب جدًّا تعريف ما هو قوة وما هو ليس قوة، كما تظهرها حالة باتي هيرست Patty Hearst. أكثر الأشياء إثارة للقلق حول بعض الضحايا المزعومين في غسيل الدماغ هو الحدة التي يتمثلونها حين يدَّعون أنه كانت لديهم الإرادة الحرة لاختيار مصيرهم ولم يُرغموا على ذلك. تظهر الحالة التالية بوضوح هذين المظهرين من غسيل الدماغ، وهي تشير كذلك إلى أن العديد من الطرائق التي ارتبطت بمصطلح إدوارد هنتر Edward Hunter تنطبق على الأساليب الأكثر قدمًا، وخاصة تلك المستخدمة في التعذيب.

إنها حالة منقوصة من غسيل الدماغ يعود تاريخها إلى أربعة قرون قبل ولادة الكلمة،كان ضحيتها مطران البروتستانت الإنجليزي وعالم اللاهوت توماس كرنمر Thomas Cranmer[14].

توماس كرنمر Thomas Cranmer : حالة دراسية

كان المطران كرينمر Cranmer عالمًا رائدًا ومصلحًا بروتستانتيًّا إبان حكم الملك هنري Henry الثامن، وبعد جلوس ماري Mary الكاثوليكية ابنة هنري Henry على العرش الإنجليزي بصورة عنيفة جدًّا، أرسل كرينمر Cranmer إلى سجن برج لندن في 14 سبتمبر عام 1553م، وهو في العقد السادس من عمره، إذ ولد في 1489م، ووفق معايير ذلك الزمان فهو يعد رجلًا عجوزًا. حوكم بتهمة الخيانة من دون محامي دفاع، وصدر بحقه حكم بالإعدام في 13 نوفمبر، لكن أهميته الرمزية للبروتستانت، وهشاشة سلطة ماري، منعت إعدامه على الفور، وعوضًا عن ذلك، أصبح كرينمر Cranmer هدفًا لمحاولات منهجية لإجباره الإعلان على الملأ تخليه عن آرائه وتأييده للكاثوليكية.

في مارس عام 1554م نُقل كرينمر Cranmer وزميليه المسجونين لاتيمر Latimer وريدلي Ridley إلى أكسفورد، وبين هذا الحدث ووفاته بعد عامين، عانى كرينمر Cranmer الشكوك حول مستقبله وأهميته، والتغير غير المرغوب في نوعية حياته؛ كان في قبضة سلطة أناس آخرين لا يحرمونه الحرية فقط، وإنما حرموه امتيازاته الثمينة مثل الكتب، وقد أزيلت دائرته المقربة من الأصدقاء الذين اعتمد عليهم دائمًا؛ كان وحيدًا وذليلًا وخائفًا، وتعرض لضغوط نفسية شديدة، من ضمنها الاتهامات العامة، ومحاولات الإقناع الخاصة، والمناظرات في علم اللاهوت التي هاجمت ثقته العقلية والروحية، وقد انفجر في مرة من المرات هذا الضغط إلى إرهاب سافرٍ

عندما أجبر كرينمر Cranmer على مشاهدة الموت المؤلم المتمثل بحرق لاتيمر وريدلي Latimer and Ridley، وأرعبه المشهد وجعله يتردد، ثم بدأ بتوقيع الوثائق اللازمة، ولكنه بعد ذلك علم أن خطوته التصالحية ذهبت هباء، وأن توقعه الرأفة من الملكة كان فارغًا، واقتنع أن قسوة الملكة ماري تعكس عدم كفاية محاولاته لنيل رضاها، فانهار وارتد تمامًا، وكانت النتيجة القبول والترحيب الحار به في الكنيسة الكاثوليكية، ولكونه مضطهدًا، بدأ الكهنة المحيطون بكرينمر Cranmer يظهرون له المودة بوصفه آثمًا تم إنقاذه.

على الرغم من أنه كان عرضة للموت، فقد أنقذت روحه، لكن ذلك لم يكن كافيًا، فلم يحرم كرينمر Cranmer طريقة للهرب من موته الوشيك الحدوث فحسب، (ما زال احتمالًا مؤلمًا ومخيفًا، رغم اعتقاده القوي بخلود الروح) وإنما يبدو أن سجَّانيه قد ارتكبوا خطأين قاتلين؛ الأول أنهم سمحوا له بالاتصال بشقيقته الناشطة البروتستانية، ولم يعرف ما قالت له، لكنها من غير المحتمل أنها عززت احترامه لذاته في ديانته الجديدة. أما الخطأ الثاني فكان رد الفعل الشديد لأحد الكهنة عندما بكى كرينمر Cranmer على ذكرى ابنه. (أب) يسخر عند حزن أب آخر؛ هل رأى كرينمر Cranmer السخرية من خلال ألمه؟ لا بد أن الترحيب الحار الذي استُقبل به تحول كرينمر Cranmer الذي يعني الكثير إلى رجل عجوز يائس ووحيد، ظهر فجأة ككذبة كبيرة. ربما كسب القليل من الرحمة، لكن الاحتقار القاسي لحزنه قوض الإكراه السابق جميعه. لابد أن استياء كرينمر Cranmer من تشوهاته النفسية قد ازداد، وحيث إنه لم يكن هناك عرض رأفة مقدم له، فلم يكن هناك شيء يخسره. أرعب سجانيه بتوجيهه خطاب ما قبل تنفيذ الإعدام استنكر فيه ارتداده، ومات بشجاعة وهو غير نادم.

خضع كرنمر Cranmer أشهرًا لما يمكن أن نسميه التعذيب النفسي؛ فقد حرم الامتيازات، والأصدقاء، وحتى الأمل، وهوجمت أسسه الفكرية، وهويته الذاتية بوصفه بروتستانتيًّا، وشاهد بأم عينيه النهاية البشعة لزملائه التي هُدد بها. الخوف، الحزن، والوحدة – الدور الأساسي للعاطفة والإكراه واضح جدًّا. يبدو أن الهجمات الفكرية على معتقدات كرينمر Cranmer قد هزته، لكنها لم تكن وحدها مسؤولة عن الإذعان لسجانيه؛ بل كان ذلك الإذعان نتيجة الضغوط المرعبة التي عاناها: الشك المستمر في مصيره، فقدان كتبه وأصدقائه الذين يحبهم، الخوف والرعب عند مشاهدة زملائه وهم يحرقون أحياء. كان للعاطفة الإيجابية أيضًا دور، فما زال كرينمر Cranmer يأمل أنه باستسلامه فقد يسترضي الملكة ماري ويتجنب الموت حرقًا، وبعد أن سحقته وأنهكته هذه المشاعر القوية جميعها، لجأ إلى المخرج الوحيد المتاح أمامه للهروب

من هذه الدوامة: الخضوع. وبصورة مشابهة، فيما بعد، يبدو أن مؤثرين عاطفيين كبيرين –هما لقاؤه مع شقيقته، وازدراء الكاهن له عند بكائه على ابنه– قد أسهما أكثر من غيرهما في إخفاق تحوله القسري.

يبين مثال كرينمر Cranmer أن طرائق غسيل الدماغ لم تظهر فجأة إلى حيز الوجود في الحرب الكورية، بل كانت جزءًا من مسيرة طويلة من الإقناع القسري الذي كثيرًا ما تضمن التعذيب الجسدي والعقلي، وكما سنرى في الفصل الخامس فإن كثيرًا من الأساليب المستخدمة في غسيل الدماغ قد شُذِّبت عبر القرون، وأصبحت متطورة كثيرًا في زمن كرينمر Cranmer. استخدام الشك سلاحًا نفسيًّا؛ ووَضْعُ الشخص مع مجموعة من الناس يؤمنون بالمعتقدات التي ستتحول الضحية إليها؛ وانتزاع الضحية من بيئته السابقة ومن أي فرصة لتعزيز معتقداته القديمة عن طريق التحدث مع الأصدقاء على سبيل المثال؛ والتهديد بالموت أو بالآلام الجسدية المبرحة، أو كلاهما؛ والوحدة وانعدام الخصوصية والإحساس بعدم القدرة على التحكم في المصير؛ هذه الوسائل كلها استخدمها الكهنة المسؤولون عن توماس كرنمر Thomas Cranmer براحة تامة، وكان الموقف في معسكرات الإصلاح الصينية، على بعد نصف الكرة الأرضية وبعد مضي أربعة قرون، مشابهًا جدًّا؛ إذ عُزل السجناء عن بيوتهم وأصدقائهم، وعزلوا أحيانًا حتى عن السجناء الآخرين، وكانوا يُهددون أحيانًا بالموت أو المعاملة الجسدية السيئة، وغالبًا ما كان مصيرهم غير واضح بالنسبة إليهم، مثلما كان مصير كرينمر Cranmer مجهولًا بالنسبة إليه في معظم وقته في السجن.

كان الأفراد يوضعون عادة مع مجموعات صغيرة من (المؤمنين)، ويخضعون للِقاءات نقاشية مطولة، يُطلب فيها نقد ذاتي مفصل بشدة، ونقد من قبل الأعضاء الآخرين في المجموعة؛ كان الهدف من هذا النقد الذي استُعمل مع المواطنين الصينيين إضافة إلى سجناء الحرب، هو «إبراز وجهات النظر السياسية والأيدولوجية»، و«التغلب على الأفكار غير الصحيحة، وتصحيح الأخطاء المذهبية الفكرية المختلفة، ورفع الوعي الحزبي لدى أعضاء الحزب، ومساعدة الرفاق»[15]. كانت المذكرات اليومية –إذا كتبت– تعد وثائق عامة، وتفحص في الاجتماعات لتقييم التقدم الفكري المذهبي؛ وكانت ظروف المعيشة المزدحمة تجعل الخصوصية أمرًا مستحيلًا، وأخيرًا –وفق ما أكد العديد من الباحثين– فإن نتيجة الكم الهائل من التكرار الذي يتعرض له الخاضعون لإصلاح التفكير هي تأنيب الضمير أو الندم. على مدى ساعات عدة يوميًّا وأحيانًا لأشهر وربما سنوات، عزز جهاز الحزب بوساطة المحاضرات أو الملصقات أو البث الإذاعي أو اجتماعات النقاش

رسائله الفكرية المذهبية. لا شك أن الإنهاك المطلق أسهم في استسلام الضحية نفسيًّا، ولا بد أن كرينمر Cranmer قد شعر بإنهاك مشابه في أثناء مساجلاته الكلامية الطويلة والمرهقة مع علماء اللاهوت الكاثوليك.

الضحايا والبيئات

«الإنسان ليس حيوانًا منعزلًا».

برتراند رسل Bertrand Russel، تاريخ الفلسفة الغربية.

Bertrand Russell, *History of Western Philosophy*

أحد الاستنتاجات الواضحة التي يمكن استخلاصها من الأدبيات المكتوبة عن غسيل الدماغ هو أن حالته المزعومة بوصفه عملية سحر شرير ومرعب يحوِّل المواطنين الأحرار إلى أموات عادوا للحياة وقد فقدوا إرادتهم، هي عملية اجتماعية في جوهرها، تتطلب اثنين من المشاركين على الأقل. تتغير الأدمغة مع تلقي الإشارات من العالم المحيط بها طوال الوقت، لكننا لا نسمي سماع تغريد العصافير، أو رائحة الخبز الطازج، أو صوت سيارة مارة (غسيل الدماغ). يتطلب هذا المصطلح عاملًا أو عوامل قسرية، ومهما كانت الأشياء التي تحدث في غسيل الدماغ، فإنها تتضمن مثل أي شكل من أشكال الإقناع، تفاعلًا اجتماعيًّا بين من يقوم بغسيل الدماغ وبين الضحية.

حيث إننا نحن البشر لم نكن قادرين حتى الآن على تغيير الدماغ مباشرة (باستثناء الأساليب الفظة مثل استعمال السكاكين والرصاصات والمخدرات، وجراحة خزع الفص الجبهي الغريبة)[16]، فإنه يتعين علينا الاعتماد على الأساليب غير المباشرة؛ أي تغيير الإشارات التي يتلقاها الدماغ؛ يمكن تنفيذ ذلك فقط بوساطة التلاعب في البيئة المادية أو الاجتماعية للضحية. بالتأكيد، فإن تغيير بيئات الناس الآخرين شيء نقوم به جميعًا؛ إننا جميعًا فنِّيو تأثير، لكن هناك درجات تفاوت، وغسيل الدماغ هو درجة قصوى: يهدف غاسل الدماغ إلى السيطرة الكلية على عالم الضحية، من أجل أن يسيطر في نهاية المطاف على عقل الضحية.

إن الأشخاص الذين يتبعون أحلامهم عن السيطرة أكثر ميلًا للجوء إلى وسائل متطرفة ليس فيها تراض في الإقناع، والأمر نفسه صحيح بالنسبة إلى الحكومات، ونَصِفُ الفرد في هذه الحالة

بأنـه مضطرب نفسـيًّا، ونصف الحكومة بالشـمولية، لكنهما يشـتركان في كثيـر من الخصائص؛ فكلاهمـا يفضـل الأمـور المطلقـة ويميلان إلى رؤيـة العالم من منظـور أبيض أو أسـود، وكلاهما يعتنق المذهب القائل إن الغاية تبرر الوسيلة، وكلاهما يمكن أن يظهر استخفافًا قاتلًا بضحيته. ظهر مصطلح (غسيل الدماغ) للمرة الأولى لوصف حكومة شمولية، ثم شمل الأفراد، كما سنرى عندما نناقش الطوائف الدينية في الفصل الثاني، حيث كانت مسرحًا لمعظم استعمالاته.

إذًا، كيف تحاول الدول الشمولية أو الأفراد تحقيق أحلامهم في السيطرة؟

بالنسـبة إلى الحكومات، يحدد روبرت ليفتون Robert Lifton [17] ثمانية عناوين نفسـية تميِّز إصلاح التفكير، وحسـبما يناقش تميز الأفكار المذهبية الشـمولية بصورة عامة (انظر الجدول 1)[18]. السـيطرة على المحيط هي محاولة للهيمنة «ليس اتصال الفرد مع الخارج فحسب (كل ما يرى ويسمع، ويقرأ ويكتب، ويشعر به ويعبر عنه)، وإنما أيضًا -في اختراقها لحياته الداخلية- ما يمكـن أن نقول إنه تواصله مع نفسـه». يتضمن التلاعب الغيبـي mystical manipulatiton التلاعب بشـخص من أجل «تحريض أنماط معينة من السـلوك والعاطفة بطريقة يظهران فيها وكأنهما قد ظهرا بصورة عفوية من ضمن البيئة». يشـير التلاعب الغيبي غالبًا إلى أهداف أسـمى أو سلطات خارقـة للطبيعـة مثل القدر، أو يـد التاريخ، أو أن يكون المرء قد اختير، أو المنزلة الإلهية أو شـبه الإلهيـة للمنظمـات المسـيطرة بوصفهـا ممثلة لسـلطة خارج الطبيعـة. توجد كذلـك الحاجة إلى النقـاء تنبـع مـن الثنائيات المتعارضـة الكامنة في الفكر الشـمولي؛ مثـل: الحزبي/غير الحزبي؛ الشـيوعي/ الرأسـمالي؛ الشـخصي/غير الشخصي؛ الخير/ الشـر. تمامًا كما في رواية (مزرعة الحيوانات) للكاتب جورج أوريل George Orwel، حيث أصبح شعار «أربعة أرجل أمر جيد، رجلان أمر سـيئ»، هو (المبدأ الأساسـي) الموجه للحيوانات، كذلك أدت الثنائية النمطية للخير والشـر في المذاهب الفكرية الأخرى إلى المطالبة السامة (وغير الواقعية) بإلغاء العناصر الخارجة عن الوسط المختار خشية أن تلوث الأشخاص الذين كتبت لهم النجاة.

العنـوان الرابـع عنـد ليفتون هو عقيدة الاعتـراف التي ترفض الخصوصيـة الفردية وتمجد الاعتراف بوصفه غاية بحد ذاته، مسـتعملًا في الاسـتغلال والسـيطرة بدلًا من المواساة، وكذلك أدرج العلـم المقدس -الـذي يحتوي مثل التلاعب الغيبـي على ألغـاز أخلاقية/روحية- تُطبق في هـذه الحالة على المبادئ الأساسـية للفكر المذهبي. ولأنه علم مقدس فهـو يعد غير قابل للطعن أخلاقيًّـا؛ إذ يمكـن أن يحـوِّل التحـدي نفسـه المتحدي إلى (لا شـخص)، وكذلك فهـو يعد دقيقًا

علميًّا؛ وهكذا تصبح الرؤية الأخلاقية المطلقة علمًا مطلقًا. إن عملية تحميل اللغة هي عملية تخدير للعقل التي تُضغَط من خلالها «أكثر مشكلات الإنسان شمولًا وتعقيدًا إلى عبارات قصيرة ومختصرة جدًّا تبدو حازمة، يسهل حفظها والتعبير عنها»، وهدفها هو إيقاف التفكير المستقل. تعني «كليشيهات إنهاء التفكير» هذه وحدة المجموع، وتحكم الجماعة باللغة، وفي النهاية بالتفكير.

أخيرًا، يدرج ليفتون ضمن صفات الأنظمة الشمولية صدارة العقيدة على الفرد، وفكرة أن العقيدة أكثر حقًّا وواقعية من أي شيء يختبره أي فرد كان، وسلب الوجود: الحق الممنوح للحزب، بتقرير مصير ليس أتباعه فحسب، وإنما أيضًا مصير اللا-بشر أي الأشخاص خارج محيطه.

الجدول 1 العناوين الشمولية الثمانية عند روبرت ليفتون

1	السيطرة على المحيط	السيطرة على اتصال الفرد مع العالم الخارجي، ومن ثم إدراكه للواقع.
2	التلاعب الغيبي	استدعاء أنماط معينة من السلوك والعاطفة بطريقة تبدو فيها بأنها تلقائية.
3	الحاجة إلى النقاء	الاعتقاد أن العناصر الموجودة خارج المجموعة المختارة يتعين حذفها لمنعها من تلويث عقول أعضاء المجموعة.
4	عقيدة الاعتراف	استخدام الإصرار على الاعتراف لتقليل خصوصية الفرد.
5	العلم المقدس	تصوير العقائد الأساسية للمذهب الفكري بكونها غير قابلة للطعن أخلاقيًا ودقيقة علميًا، وهو ما يزيد في سلطتها الظاهرة.
6	تحميل اللغة	ضغط الأفكار المعقدة في عبارات مختصرة تبدو حازمة، (كليشيهات إنهاء التفكير).
7	صدارة العقيدة على الفرد	فكرة أن العقيدة أكثر حقًّا وواقعية من أي شيء اختبره أي فرد من البشر.
8	سلب الوجود	الحق في السيطرة على نوعية الحياة والمصير النهائي لكل من أعضاء المجموعة وغير الأعضاء.

obeikan.com

ينبع هذا الحق من اعتقاد الحزب أنه يوجد مسار واحد إلى الحقيقة، «أنا الطريق، والحقيقة، والحياة؛ لا أحد يصل إلى الرب، إلا من خلالي» (يوحنا، 14:6)، وأنه هو الوحيد الذي يعرف الطريق، وأنه يجب حذف المسارات غير الصحيحة. مثل معظم المذاهب المسيحية (عدا مذهب الكالفنية الذي يؤمن بالقضاء والقدر)، يُعتَقد في إصلاح التفكير أنه يمكن تحويل اللا-أشخاص إلى أشخاص؛ لذلك فإن ممارسيه لم يتجاوزوا إلى الافتراض الأبعد الذي ينص على أنه ليس فقط يجب تدمير الطرق غير الصحيحة، وإنما أيضًا أولئك الذين يتبعونها، وهي بهذا تختلف عن بعض المذاهب الفكرية الأخرى التي أشنعها النازية: كما يجادل المؤرخ دانيال جولدهاجن Daniel Goldhagen[19]، كانت إحدى أكثر عناصر المذهب الفكري النازي سُمِّية هي الاعتقاد أن البنية البيولوجية لليهود جعلتهم غير قابلين للإصلاح.

حالة دراسية: الأب لوكا Luca

تظهر عناوين ليفتون الثمانية بصورة جلية من خلال مناقشته لحالة الأب فرانسيس لوكا Francis Luca؛ وهو راهب إيطالي عاش في الصين سنوات عدة ثم اعتقل وخضع لإصلاح التفكير؛ وجد لوكا Luca نفسه في عالم يُسيطَر فيه على كل مظهر من مظاهره، حيث كان يُعَدُّ المذهب الشيوعي أمرًا جيدًا لا يمكن تقبل الطعن فيه، والإمبريالية الغربية ببساطة سيئة، وكان مصيره في أيدي أناس طالبوه بتنقية نفسه من أي فكر غير مرغوب فيه. وصف ليفتون حالته هذه بالتفصيل، وسوف ألخص هنا النقاط الرئيسة:

كان الأب لوكا Luca يدرك أن هناك إمكانية لاعتقاله؛ نظرًا إلى صداقته مع راهب آخر هو الأب سي، الذي انخرط في أنشطة معادية للشيوعية؛ ولذلك خطَّط مقدَّمًا لدفاعه عن نفسه؛ كان في التحقيق الأولي متحديًا ومنتقدًا لآسريه، فكان رد فعلهم منعه من النوم والألم، فأخضعوه لتحقيقات ليلية وقدماه مقيدتان بسلاسل مثبتة بها أثقال تزن عشرة كيلوغرامات، ويداه مكبلتان بالأصفاد، وكان يجبَر على الجلوس على الأرض وساقاه ممدودتان؛ وعندما يعود غير قادر على البقاء في هذا الوضع، «كان يميل إلى الخلف؛ ويقع وزنه على معصميه المقيدين وراء ظهره. ومع إحساسه بالألم الناتج من الأصفاد التي تحفر في جلده ووضعه غير المريح، بدأت تتوارد عليه لأول مرة أفكار الاستسلام والتنازل».

كان لـوكا Luca يوضـع فـي الأوقات التي لا يخضع فيها للتحقيق في زنزانة صغيرة مكشـوفة مع سـجناء آخرين اختيروا لأنهم مذعنون، وأُخبروا أن مسـاعدتهم على إصلاح تفكير لوكا Luca سـتعجِّل من إطلاق سـراحهم، فكان واجبهم الذي يقومون به بحماس سـاعات عدة كل مرة، هو (إرهاقـه) بوابـل مـن الأسـئلة والاتهامات حـول أنشـطته ومعتقداتـه، مطالبين إيـاه بالاعتراف، ومنتقديـن لأي شـيء يقولـه. كان يُجبـر علـى البقـاء واقفًـا حتى تتورم رجـلاه بالسـوائل وتصاب بالإنتـان، وأن يظل مسـتيقظًا بصورة مسـتمرة تقريبًا (في إحدى المرات سـمح لـه بالنوم بعد أن أغمـي عليـه). تحمَّـل هذه المعاملة شـهرًا، أدلى خلالـه باعترافات عدة مزيفـة بالكامل حتى إنه أصبـح يجـد صعوبـة كبيـرة فـي تذكر ما اعتـرف به. عند هـذه المرحلـة، وفقًا لما ذكـره لروبرت ليفتون لاحقًا، «كنت سأقول تقريبًا أي شيء يريدون مني أن أقوله».

أمر القاضي بإزالة قيود لوكا Luca بعد شـهر، وطلب منه النوم مدة يومين، معبرًا عن أمله بـأن يسـاعده هـذا على الإدلاء باعتـراف أفضل، وعندما أخفق في ذلك ضُـرب ضربًا مبرحًا على ظهره بحيث تُرك عاجزًا جسـديًّا، وقد أخبره الطبيب الذي فحصه بأن عموده الفقري قد كُسـر، لكنـه سيشـفى مـع مرور الوقت. كان زملاؤه فـي الزنزانة -على أقل تقدير- غيـر متعاطفين معه، وعلـى الرغـم من أنه تلقى بعض العلاج الطبي لتقرحات السـرير، فإنه لم يتمكن من المشـي قبل مضـي عـام، عند ذلك اُسـتؤنف (الإرهاق) والاعتداء الجسـدي الذي كان قد أوقف مباشـرة بعد إصابتـه، ورفضـت اعترافاتـه الأصلية، أخيرًا سـلك المخـرج الوحيد الذي اسـتطاع أن يفكر فيه: عرض الأحداث التي حدثت في الواقع على أنها أكثر إدانة مما كانت عليه في الواقع.

رحب خاطفوه بالمبالغات الناتجة موافقين عليها، وهو ما شجع لوكا Luca على كتابة المزيد والمزيد عن نفسـه. اسـتُبدِل بزملائه في الزنزانة آخرون جدد، واسـتُبدل بالنظام القديم القائم علـى التعذيـب الجسـدي الضغطُ النفسـيُّ للاعتراف بأي (أفكار سـيئة)، وخاصة إدانة الكنيسـة الكاثوليكيـة، وهـو ما ظل لوكا يرفضه حتـى الآن. بدأ يخترع (أفكارًا سـيئة)، مدعيًا -مثلًا- ولعًا بالرئيس الأمريكي السابق هاري ترومان Harry Truman، لم يكن موجودًا لديه في الحقيقة أبدًا.

أنتج هذا موقفًا أكثر ودية مع محققيه، فصاروا يتبادلون النقد الدائم لسـلوك الكنيسـة، إلا أن ذلك سـبب عذابًا نفسـيًّا للوكا Luca، لكنه «أكثر فأكثر كبت أي اعتراض داخلي كان يشـعر به، وبدأ بالتعبير عن نفسه بحذر، تعبيرًا ينسجم مع وجهة النظر الشيوعية كلما أمكن ذلك»، واستمر أيضًـا فـي مراجعة اعترافه. كوفئ ببرنامج أكثر حرية، وبأمل بإطلاق سـراحه، لكنهم توقعوا منه

بالمقابل كتابة رسالة يشجب فيها أنشطته السابقة، ومساعدة السجناء الجدد على الاعتراف، وقد فعل ذلك. في نهاية المطاف بعد أن صُوِّر مع التسجيل وهو يقرأ اعترافه بصوت عال، أطلق سراحه وطرد من الصين، بعد ثلاث سنوات ونصف قضاها في السجن. تُرك يشعر بالضعف، والخزي، ويصارع لفهم محنته، وأكثر انتقادًا من قبل للإرسالية التبشيرية للكنيسة الكاثوليكية في الصين، آسفًا على ما ضاع من حياته هناك، مدركًا أنه قد تعرض لتحول مهم في شخصيته.

وجد الأب لوكا Luca أن آفاقه قد اتسعت بتجربته في إصلاح التفكير، وأصبح قادرًا، وإن كان ذلك بمشقة عميقة، أن يقبل ويندمج مع كثير من النقد الشيوعي لكنيسته الكاثوليكية المحبوبة؛ ومن ذلك -على سبيل المثال- انتقاده للرهبان بأنهم يعيشون في بذخ نسبي، وأنهم قد حملوا السلاح ضد الشيوعيين في بعض الحالات. حقق ذلك بصورة أساسية بتوضيح الفارق بين مبادئه الدينية الأساسية التي نجت من إصلاح التفكير، وسلوك الكنيسة ورهبانها، الذي لم يخرج من الإصلاح سليمًا. أتاح تحمُّله للأفكار الجديدة لعقله أن يتغير، لكن ليس أن ينكسر، بتأثير صدمة إصلاح التفكير؛ لذا كان قادرًا على الخروج معافى نسبيًّا، لكن كما تبين دراسة الحالة التالية، لم يكن ضحايا إصلاح التفكير جميعًا محظوظين بالقدر نفسه.

حالة دراسية: الأب سيمون Simon

كان الأب سيمون Simon راهبًا كاثوليكيًّا، أمضى عشرين عامًا في الصين يدرِّس العلوم قبل اعتقاله وإخضاعه لإصلاح التفكير[20]. كان قد انتقد الشيوعية علنًا، وكان في البداية شديد التحدي في أثناء التحقيق، لكنه أحب الصين حبًّا عميقًا، وأفزعته فكرة مغادرتها، وكان كذلك يتمتع بضمير قوي حي، وهو ما حدا به إلى الشعور بالذنب تجاه أحداث قد يراها الآخرون تافهة، كالمناسبة التي تحدث فيها إلى ضابط مخابرات في الجيش الأمريكي على سبيل المثال، كذلك أتاحت بيئة السجن له العيش بين المواطنين الصينيين بطريقة لم يكن يظن أبدًا أنه كان قادرًا عليها؛ كان المزيج بين العواطف الإيجابية والسلبية القوية غامرًا-وفاعلًا. بعد أن وجد أنه يستطيع التخلص من ندمه، وفي الوقت نفسه أن يبقى قريبًا من الصين التي عشقها، إذا اعترف بخطاياه التي اقترفها بحق الشيوعيين، ومن ثم تبني معتقداتهم؛ أصبح مطاوعًا لهم، لكن بخلاف الأب لوكا Luca فإن مطاوعة الأب سيمون كانت بعيدة كل البعد عن السطحية، فعندما أجرى روبرت ليفتون Robert Lifton لقاء معه بعد إطلاق سراحه، كان شديد الانتقاد لزملائه الكاثوليكيين بسبب

(تحريفاتهم) المعادية للشيوعية، وكذلك أنكر أنه لقي وحشية في السجن (على الرغم من التقارير المناقضة التي قدمها السجناء الآخرون)، وأشاد بالشيوعية بحماس شديد.

حافظ الأب سيمون Simon مثل الأب لوكا Luca، على أعمق مبادئه الدينية، ولكنه -بخلاف الأب لوكا- كان حزينًا لقناعة الشيوعيين بأنه لا يمكن أن يكون الشخص شيوعيًّا وكاثوليكيًّا في آن معًا، واعتقد أيضًا أن الكاثوليكية يمكنها تعلم كثير من طرائق الشيوعية. وغني عن القول إن أفكاره قد أفزعت زملاءه السابقين، ومع ذلك فقد أعادوه إليهم على أمل أن يعود تدريجيًّا بمرور الوقت إلى قناعاته السابقة، ولكن يبدو أن هذا الأمل كان تفاؤليًّا؛ فقد أجرى ليفتون معه مقابلة بعد ثلاث سنوات ونصف من تعرضه لإصلاح التفكير، وفي ذلك الوقت لم يظهر تمسك سيمون Simon بالشيوعية أي علامات على التراجع.

الدور الذي يكون لشخصية الفرد تُظْهِر مقارنة قصتي الأب لوكا Luca والأب سيمون Simon أن الفروق بين شخصيات الأفراد لها دور في جعله قابلًا لغسيل الدماغ، فقد كانا كلاهما شديد التدين، مغرمًا بالصين والصينيين، وذا ثقافة جيدة، لكن شخصية الأب سيمون Simon كانت أقل مرونة وأكثر عاطفية من شخصية الأب لوكا Simon، وقد رسم روبرت ليفتون Robert Lifton صورة لرجل متوتر غاضب، عرضة للمشاعر القوية وللتفكير على نمط الكل أو لا شيء؛ كانت تلك هي نقاط الضعف التي أثر من خلالها إصلاح التفكير تأثيرًا عظيمًا.

المثال الأخير الذي اخترته لتوضيح غسيل الدماغ مثال خيالي، وقد أُخذ من رواية كُتبت في العام 1948م؛ أي قبل سنتين من دخول الكلمة رسميًّا إلى اللغة الإنجليزية، ومع ذلك فقد أصبحت معروفة في العالم الناطق بالإنجليزية بوصفها رواية رائعة وتحذيرًا مرعبًا من أخطار الشمولية. من خلال التحدث بضمير الغائب، تجنبت الرواية مشكلات السرد الذي لا يمكن الاعتماد عليه، وهي المشكلات التي تنشأ عندما يوصف غسيل الدماغ من قبل ضحاياه أو من قبل مروجي الدعاية الأمريكيين الذين راقبوا الضحايا؛ إنه وصف جيد للمفهوم مثلما قد تجده في مكان آخر.

حالة دراسية: أربع وثمانون وتسع مئة وألف Nineteen Eighty Four

يعيش ونستون سميث Winston Smith؛ بطل رواية جورج أورويل George Orwell، في عالم تسيطر عليه ثلاث قوى عظمى متحاربة: أوسيانيا، أوراسيا، وإيستاسيا. يقع منزله في لندن،

أوسيانيا، ويعمل في المستويات الدنيا من الحزب الشمولي الحاكم. كانت وظيفته تزوير سجلات الماضي بحيث تظهر سياسات الحزب، حتى لو كانت تناقض مباشرة السياسات السابقة، ثابتة على الدوام؛ إنه جزء من مجهود ضخم للسيطرة على التاريخ نفسه، وهو لازم لأن الحزب يقدم نفسه بوصفه معصومًا عن الخطأ: «لا يمكن الاعتراف بأي تغيير في العقيدة أو الانتظام السياسي؛ لأن تغيير الشخص لرأيه، أو حتى تغيير سياسته، هو اعتراف بالضعف»[21].

لكن الحزب لا يقتصر على التلاعب بالتاريخ. عناوين ليفتون الثمانية (انظر الجدول1، صفحة 35) ذات صلة واضحة بالموضوع؛ هذه المنظمة مثال قوي على الفكر المذهبي الشمولي. تؤكد السيطرة على المحيط أن أعضاء الحزب يخضعون لانضباط صارم في التحكم في التفكير في كل لحظة من اللحظات، إذ يوجد في كل بيت شاشة عرض تعرض المحطة التي يسيطر عليها الحزب والتي تقدم المعلومات كلها عن العالم الخارجي، والقناة تبث بالاتجاهين؛ ولذلك فهي بوابة تجسس ممكنة للسلطات، ويمكن أن تراقب شرطةُ التفكير شاشة عرض أي شخص في أي وقت من الأوقات. تُشجَّع الهبَّات العاطفية الجماعية المنتظمة (دقيقتان من الكراهية)، وتسلط فيها نوبة من الكراهية والخوف ضد أعداء الحزب. «يتوقع من عضو الحزب أن يكون مجردًا من العواطف الخاصة من دون هوادة في الحماس الحزبي، ويفترض أنه يعيش في نوبة كراهية مستمرة للأعداء الأجانب والخونة الداخليين، ويبتهج بالانتصارات، ويحتقر ذاته أمام سلطة الحزب وحكمته». يحوَّل الاستياء الناتج من حياته غير المرضية بصورة مقصودة إلى الخارج، ويبدده بوسائل مثل (دقيقتان من الكراهية)، وأما التخمينات التي يحتمل أن تشتمل على مواقف تشككية أو تمردية فيقضي عليها سلفًا باكتسابه الانضباط الداخلي في وقت مبكر.

تظهر الأحداث المنسقة مثل (دقيقتان من الكراهية) تلك (العفوية) المخطط لها التي تميز التلاعب الغيبي وجلد الذات المحموم في عقيدة الاعتراف، أما طلب النقاء فيتردد صداه في الوقت نفسه خلال رواية أربع وثمانون وتسع مئة وألف Nineteen Eighty Four. وظيفة ونستون هي تنقية التاريخ. يمجد الحزب قائده، وهو الأخ الأكبر Big Brother ، ولا يمكن تحدي علمه المقدس، وحتى إذا وُجد تناقض بين العقائد نفسها من يوم إلى آخر، فسيظل لها الأسبقية على التجربة الشخصية؛ فمثلًا، تتطلب وظيفة ونستون منه أن يقبل، بل ويعزز عقيدة أن أوسيانيا هي في حالة حرب مع أوراسيا eurasia، وأنها كانت دائمًا في حالة حرب معها، على الرغم من أنه يتذكر الزمن الذي كانت فيه أستاسيا هي العدو، وعلاوة على ذلك فالحزب يمنح -من دون أدنى شك- الحق في الحياة أو الموت.

ونستون هو ثائر تعذبه الذاكرة، فهو يربط من منظوره بين العمليات التي يمارسها الحزب في سيطرته على التفكير، وإحدى هذه العمليات هي تعديل اللغة؛ إذ يطبق الحزب تدريجيًّا لغة جديدة، نسخة مشذَّبة من اللغة الإنجليزية تختفي منها الكلمات (الخطيرة) مثل (الحرية)، وذلك بناءً على أنه من دون الكلمات التي تعبر عن مفهوم معين سوف تتلاشى المفاهيم نفسها وتموت: «صُمِّمت اللغة الجديدة لتقليص مدى الفكر وليس توسيعه»، والكلمات التي بقيت محملةٌ بالمذهب الفكري، وهي أمثلة واضحة على كليشيهات إنهاء التفكير عند ليفتون.

لكن قوة الحزب الحقيقية وإرهابه يكمنان في الشك؛ فلا يعرف ونستون أبدًا من هو إلى جانبه؛ فكل شخص مُخبِرٌ محتمل. الأسوأ، أنه لا توجد قوانين، فليس هناك ما هو إجرامي بالمعنى الحرفي للكلمة؛ ومع ذلك فإن أي ابتداع سيعاقب، والعقاب هو في الإزالة: يختفي الناس ببساطة. لا أحد يعرف ما هو خطِر أو غير خطِر، من هم شرطة التفكير، أو حتى كيف يدافعون عن أنفسهم ضد الادعاءات الكاذبة؛ لذا يعيشون في رعب دائم، وهم في جهل مطبق؛ لأن المعلومات تحت سيطرة الحزب، يتوق ونستون الذي يتذكر بصورة غامضة أن الأشياء كانت مختلفة إلى صديقٍ، شخصٍ يمكنه التحدث معه، شخصٍ متفهم؛ يعد هذا بحد ذاته جريمة تفكير، ومعرفة ذلك تدفعه إلى سلوك متهور على نحو متزايد.

تنقضُّ السلطات في الوقت المناسب، ويُعرَّض ونستون للتعذيب، وينكسر، و(يعاد تعليمه)، ويتحول من كراهية الأخ الأكبر والخوف منه إلى محبته.

> **لكن كان ذلك صحيحًا، كل شيء كان على ما يرام، انتهى الصراع؛ انتصر على نفسه، وأحب الأخ الأكبر.**
>
> أورويل، Orwell, Nineteen Eight-Four, p.240.
>
> Orwell, *Nineteen Eighty-Four*, p. 240

غسيل الدماغ بوصفه آلية

أخذتنا كتابات أورويل Orwell إلى عوالم كل من ضحايا وسائل التعذيب والإداريين القائمين عليها، وأوضحت الطبيعةَ الهادفةَ لأساليب الحزب في السيطرة، والاختلافَ المعرفي بين المعتقدات التي تمسك بها ونستون Winston قبل تحوله وتلك التي تمسك بها بعد التحول،

والجدولَ الزمنيَّ القصير نسبيًّا الذي حدث فيه تحوُّله. من الواضح أنه قد استعملت كل من القوة، والعواطف القوية، والتكرار، والتعذيب النفسي والجسدي ضد ونستون Winston، كما كانت قد استعملت ضد كرينمر Cranmer، وباتي هيرست Hearst، والأب لوكا Luca، والأب سيمون Simon. وصل تعذيب ونستون Winston إلى ذروته (إلى أسوأ شيء في العالم)، عندما أُخذ إلى الغرفة 101 التي كانت آنذاك غرفة تعذيب شهيرة، وهُدد فيها بأقصى ما كان يخاف منه –كان هذا الشيء بالنسبة إلى ونستون Winston فكرة جرذ يقضم في وجه ونستون Winston– هو ما حقق خضوعه التام.

تضمن إصلاح التفكير الشيوعي أيضًا ضغطًا عاطفيًا كبيرًا؛ فقد وجد الطلاب الصينيون الذين أُرسلوا إلى الجامعات لإعادة تعليمهم، وجدوا أنفسَهم منغمسين في مجموعة تواجَه فيها الأفكار المخالفة بالهجوم بصورة دائمة؛ كان كل مظهر من مظاهر السلوك عرضة للنقد الدائم من قبل الطلاب الآخرين، وكان التشجيع على النقد الذاتي، وهو أحد المظاهر الرئيسة لإصلاح التفكير، يجري بصورة متزايدة؛ لم يكن هناك وجود للخصوصية؛ كانت المحاضرات تستمر ساعات عدة؛ وفي أيام التدريب الطويلة التي تتكون في معظمها من محاضرات ولقاءات النقد الذاتي، كانت العواطف تتأجج كثيرًا. ذكر أحد الطلاب السابقين الذي أجرى هنتر Hunter مقابلة معه، المعدلَ المرتفع للانتحار في معاهد إصلاح التفكير. يصف ليفتون Lifton الذي قابل أربعين شخصًا من الصينيين والغربيين، بالتفصيل الاستخدام المتكرر للتهديد بالتعذيب الجسدي واستخدامه الفعلي لتحطيم مقاومتهم بمفردات شبيهة جدًّا بتلك التي وصفها أورويل، كما أظهرتها الحالة الدراسية للأب لوكا Luca.

توضح الحالة Nineteen Eighty Four أيضًا بعض الصفات التي تقود الناس إلى زعم حصول غسيل الدماغ، بدلًا من مجرد الإقناع.

الصفة الأولى هي نوع المعتقدات التي تتبناها الضحية المزعومة؛ إذ لا تختلف هذه المعتقدات في الحالة النموذجية عن المعتقدات السابقة اختلافًا كبيرًا فحسب، بل إنها قد لا تمت بصلة للواقع أو لمعتقدات الأغلبية، أو قد تكون في غير مصلحة الضحية (كما هي الحال عندما يُضطهد المؤمنون بدين ما). يبني الحزب واقعه الخاص به الذي قد تكون صلته بما يحدث فعليًّا في العالم قليلة جدًّا أو معدومة، وهذا ما يبدو جليًّا في كامل رواية Nineteen Eighty Four من خلال توصيفات الحصص التموينية التي لا معنى لها، والانتصارات التي تقود إلى لا شيء، والحرب التي لا نهاية لها ضد أعداء يغيرهم الحزب اعتباطيًّا.

الصفة الثانية لضحايا غسيل الدماغ المزعوم هي عاطفيتهم؛ فقد يظهرون مرتبكين عند تعاملهم مع الأقرباء أو الغرباء، أو قد يرتكسون بعدائية قوية لأي تحدٍّ لمعتقداتهم الجديدة. يتذكر ونستون Winston في نهاية الكتاب، مواقفه السابقة، ويصفها بأنها: «فظة، وسيئة الفهم بصورة غير مسوَّغة!»، وأن طبيعته السابقة كانت (العناد) و(التشبث بالرأي). ويقتبس إدوارد هنتر Hunter من مسرحية دعائية شيوعية يصرح فيها طالب بغضب: «لم أستطع رؤية الشفرة القاتلة التي تقف خلف أقنعة المعلمين والأساتذة الجامعيين الأمريكيين؛ لم أستطع سماع البنادق والقنابل في خلفية أفلامهم الموسيقية. الآن أعرف تمامًا وأفهم الوضع برمته»[22]. قد يظهر التغير في السلوك متطرفًا جدًّا، بحيث إن أقارب أعضاء الطائفة الدينية -على سبيل المثال- كثيرًا ما يشكون من أن الشخص الذي يحبونه «لم يعد الشخص نفسه أبدًا». وفي نهاية رواية Nineteen Eighty Four يبدو ونستون شخصًا مختلفًا تمامًا عن بطل الرواية المضطرب في بدايتها؛ فقد ذهبت النيران التي اكتوى بها إبان وجوده في المعارضة، وتقلصت اهتماماته إلى الحياة اليومية المباشرة؛ ما خرج هو الحقيقة، والذاكرة والتاريخ؛ وما دخل كان شاشة العرض اللانهائية وحجم فاتورة المشروبات.

غسيل الدماغ بوصفه فكرة

«... سكن الإنسان دائمًا عالمًا يشبه الحاضر حيث يرتبك حب النظام برغبة في الاضطهاد».

دي توكفيل De Tocqueville، الديموقراطية في أمريكا.

De Tocqueville, *Democracy in America*

كثيرًا ما يستخدم (غسيل الدماغ) على أنه فكرة مفهوم الملاذ الأخير، لكن التفسيرات الجديدة قد تقوِّض الحاجة إلى مثل هذه المفاهيم، وهو ما يجعل هذا الاستخدام (لغسيل الدماغ) على نحو متزايد أمرًا لا لزوم له. سوف ننظر في بقية هذا الكتاب في عدد من التفسيرات البديلة لمواقف مختلفة كانت تسمى (غسيل الدماغ)، ظهرت بعد أن وضع هذا المصطلح، وسوف نرى أن علم النفس- خاصة علم النفس الاجتماعي- وعلم الأعصاب يمكن أن يقدِّما بصيرة واسعة حول كيفية تأثير الناس بعضهم في بعض، تراوح بين التأثيرات العرضية قصيرة المدى للمحادثات اليومية والعواقب التي تغير الحياة بتأثير التعذيب والإكراه. لم تقدم الحالات الدراسية أي دليل على وجود عملية (سحرية) تسمى (غسيل الدماغ)، على الرغم من أن عديدًا من الباحثين

(ومنهم حكومة الولايات المتحدة) قد أنفقوا المال والوقت بحثًا عن مثل هذه العملية، وعوضًا عن ذلك، تقترح الدراسات أن غسيل الدماغ، من حيث عَدُّه عملية، من الأفضل أن يعد اسمًا جامعًا لطرائق متنوعة يتزايد فهمها لتغير العقل دونما تراض.

لكن هناك جانب آخر لغسيل الدماغ لا علاقة لهذه التفسيرات به: أي طبيعته المفاهيمية بوصفه تهديدًا شموليًّا كامنًا. ونعود مرة أخرى إلى أورويل Orwell، ففي أثناء تحول ونستون Winston's الموجع، أعطى جلاده أوبراين O'Brien تصريحًا حاسمًا وله سمة إنجيلية واضحة، عن الرابط بين غسيل الدماغ والشمولية:

«عندما تستسلم في النهاية لنا، يجب أن يكون ذلك عن إرادتك الحرة، فنحن لا ندمر المنشق لأنه يقاومنا؛ فما دام يقاومنا فلن ندمره أبدًا؛ نحن نحوّله، ونستولي على عقله الداخلي، نحن نعيد تشكيله. إننا نحرق جميع الشرور والأوهام من عقله؛ نأتي به إلى جانبنا، ليس ظاهريًّا ولكن جوهريًّا، في القلب والروح، نجعله واحدًا منا قبل أن نقتله؛ لا نستطيع أن نتحمل وجود فكرة غير صائبة في أي مكان في العالم، مهما كانت سرية وضعيفة».

أورويل Orwell, Nineteen Eighty–Four,P. 205

يمثل هذا التصريح الذي يعيد ذكريات تثير القشعريرة بما حدث مع ثوماس كرينمر Thomas Cranmer، أقصى جموح شمولي: أن يتطابق ليس السلوك فقط بل كل فكرة مفردة في كل دماغ منفرد في العالم كله، في قالب فكري مذهبي واحد؛ إنه التوق إلى أن تصبح فعلًا فوق البشر، ليس أن تكون الرب الذي يعبده المسيحيون، والله الرحيم الذي يسبِّحه أيضًا المسلمون، بل دكتاتورًا مجنونًا يعد نفسه إلهًا. إنه حاجة ملحة إلى الكمال، يخنق أي إمكانية للحرية، أو الانحراف، أو التغيير. لا يمكن تخيل فكرة أكثر رعبًا من هذه، عدا التدمير الكامل بالطبع؛ حتى إن هذه الفكرة تثير قشعريرة في البدن لا يثيرها حتى التدمير.

الخلاصة والاستنتاجات

«ربما تساعد إزالة الغموض عن غسيل الدماغ، وهي عملية التغير القصوى، على إلقاء المزيد من الضوء على كيفية عمل دماغ الإنسان العادي؛ لأن العوامل التي يمكن دمجها لفرض هذا التغيير

المفاجئ قد تكون مسؤولة بصورة مماثلة، بأشكالها المختلفة وبصورة خفية مع مرور الوقت، عن تشكيل شخصياتنا في المقام الأول؛ قد تجعلنا نتساءل عن الأسس بدلًا من الواجهة».

دينيس وين Denise Winn، العقل المتلاعب به The Manipulated Mind

Denise Winn, *The Manipulated Mind*

قدَّم هذا الفصل مفهوم غسيل الدماغ، واستكشف تاريخه وتأثيره الضار، ومفهوم الملاذ الأخير فيه، وقدم وصفًا لآليةٍ أو أكثرَ من آلياته، وعَدَّه فكرة خطِرة. وفي الفصول القادمة سوف نسأل: هل تحقق هذا الجموح الأقصى؟ وسنسأل: هل سيتحقق بصورة مطلقة؟ وسوف نبحث في فكرة غسيل الدماغ، حلم التحكم الكلية. ما الذي تقوله عنا وعن إرادتنا الحرة؟ وكيف يمكننا الحد إلى أقصى ما يمكن من العواقب الوخيمة التي تحدث عندما يحاول الناس ملاحقة هذا الحلم؟

obeikan.com